شهادة رنا المدهون: الحمل والولادة الوشيكة في ظل الحرب على غزة

20 تشرين الثاني 2023

اسمي رنا المدهون، عمري 34 عامًا، وأسكن مع عائلتي في حي الجلاء وسط مدينة غزة. أنا لاجئة فلسطينية من الجيل الثالث: هُجرت عائلتي قسراً وتعرضت للتطهير العرقي من منزل أجدادنا في قرية المجدل عام 1948.

أنا محامية وأعمل في مجال الدفاع عن حقوق الإنسان. أعمل حاليًا في وحدة التدريب والاتصال الجماهيري في مركز الميزان، حيث أقوم بتنظيم وعقد دورات تدريبية وورش عمل حول القانون الدولي لحقوق الإنسان والقانون الإنساني الدولي لمجموعات مختلفة وفئات متضررة هنا في غزة - بما في ذلك طلاب القانون، وخريجي الحقوق، والأطباء، والمزارعين، والصيادين والنساء.

لدي طفلان – الحسن، 8 سنوات، وميرا، 6 سنوات – وأنا حامل في الطفل الثالث، وهو صبي أطلقناه عليه اسم أوس. أنا أكتب هذه الكلمات وأنا في الشهر الثامن من الحمل. ***أشعر بالرعب مع اقتراب موعد الولادة، بدلاً من أن أشعر بسعادة غامرة. ما زلت أفكر كيف ستكون الولادة في ظل الظروف الحالية في غزة.***

كانت تجربة ولادة أول طفلين معقدة. وُلد كل من الحسن وميرا بعملية قيصرية طارئة. كما تم تشخيص إصابة طفلتي ميرا بتضيق رئوي بعد أسبوع من ولادتها، وتم نقلها بشكل عاجل إلى مدينة القدس لإجراء عملية جراحية لها. ماذا سيحدث إذا كنت بحاجة إلى عملية قيصرية طارئة أخرى؟ ماذا سيحدث لأوس إذا كان بحاجة إلى دخول وحدة العناية المركزة لحديثي الولادة أو إذا كان بحاجة إلى علاج غير متوفر في غزة، تمامًا مثل أخته؟

النزوح الأول

في الأسبوع الأول من الحرب، تم قصف منزل مجاور للمبنى الذي أسكن فيه دون سابق إنذار. كان والديّ وأخي وعائلته متواجدين في منزلي، حيث اضطروا إلى إخلاء منزلهم في منطقة المقوسي، شمال مدينة غزة، بعد تعرضه لقصف عنيف. عندها قررنا جميعًا مغادرة شقتي خوفًا من استهداف المنزل مرة أخرى. ذهبنا إلى شقة عائلة زوجي في تل الهوى. وبعد ثلاثة أيام، وصلتنا أخبار عن استهداف بعض الشقق السكنية في بنايتنا، ومقتل جيراني، وتعرُّض منزلي لأضرار جسيمة حيث أصبح غير صالح للسكن. لقد أثر عليّ ذلك الخبر كثيرًا، وظللت أتخيل ماذا كان سيحدث لنا لو بقينا في الشقة، هل كنت سأنجو أنا

وأولادي وأهلي أم لا، وهل كنت سأتمكن من حماية أطفالي وعائلتي؟ الطفل الذي لم يولد بعد. حاولت أن أستعيد قوتي لأن التحديات المقبلة ستكون أصعب وأقسى.

في تل الهوى - الملاذ الوحيد المتبقي لنا بعد تدمير شقتي ومنزل عائلتي، وفي ظل صعوبة التنقل جنوبا، بناء على أوامر الإخلاء التي أصدرها الاحتلال لجميع سكان شمال غزة - مررنا بأسبوعين هما الأكثر دموية والأكثر تحديًا والأصعب. وقد تعرضت المنطقة للقصف بلا هوادة من خلال قصف مكثف لا يمكن وصفه، حيث سقط ما لا يقل عن 50 صاروخاً بشكل متواصل خلال ساعة واحدة. كنا نشعر بالأرض تهتز تحتنا، ونسمع تحطم الحجارة والزجاج المتكسر، بينما أضيئت نوافذ الشقة بالنيران المشتعلة حول المبنى. وتكرر هذا المشهد المرعب لمدة ثلاثة أيام متتالية. ***كنت أضم أطفالي بالقرب مني، وأبحث عن المنطقة الأكثر أمانًا داخل المنزل، وأقول إننا إذا متنا فسنموت جميعًا معًا، وإذا انتهى بنا الأمر تحت الأنقاض، فقد نتمكن من مساعدة بعضنا البعض.***

في تلك اللحظات، أدركت أن الطفل يمكن أن يشعر بما أشعر به. كنت خائفة للغاية، وبدأ الطفل يتحرك بسرعة وبقوة، وهي حركة كانت كثيفة ومرهقة في نفس الوقت، لكنها طمأنتني أنه بخير.

كل صباح أتساءل كيف ما زلنا على قيد الحياة. كانت الليلة مرعبة للغاية، لكن ذلك لا يعني أنه كان هادئًا أثناء النهار، حيث لم يتوقف القصف أبدًا. خلال اليوم نحن مشغولون بمحاولة لتوفير احتياجاتنا الأساسية من الماء والغذاء واحتياجات أطفالنا رغم شح كل شيء. كنت سعيدةً جدًا بالعثور على صيدلية مفتوحة في مكان قريب، على الأقل يمكنني إحضار الأدوية اللازمة والفيتامينات ومضادات التخثر والحديد.

مع مرور كل يوم، أصبح القصف أكثر كثافة. وتلقى مستشفى القدس، الذي كان قريبًا جدًا من المبنى الذي لجأنا إليه، أوامر الإخلاء، وكان محيطه يتعرض للقصف بشكل مكثف طوال اليوم. وفي أحد الأيام، وبينما كنا نتناول الغداء، سمعنا جارتنا تنادينا لإخلاء المبنى بشكل عاجل، بعد نداء الإخلاء بسبب القصف. ورغم قيام كل واحد منا بتجهيز حقيبة الطوارئ، إلا أن صعوبة الوضع والخوف جعلتنا ننسى معظم ممتلكاتنا، بما في ذلك أدويتي وملابسنا.

غادرنا الشقة وذهبنا إلى المدرسة المقابلة لبنايتنا طلباً للأمان ولنقرر لاحقًا أين سنذهب. بعد دقائق قليلة من وصولنا إلى المدرسة، تعرض المبنى للقصف، وكان هذا من أصعب المشاهد بالنسبة لأطفالي والأكثر إيلامًا جسديًا وعاطفيًا بالنسبة لي. بكيت مع أطفالي ميرا وحسون (الحسن). لم أستطع حبس دموعي هذه المرة ولم أستطع أن أكون قويةً. لقد فقدنا المأوى الوحيد المتبقي لنا، وذهب معه كل شيء، ممتلكاتنا وذكرياتنا الجميلة وحتى السيئة. على الرغم من الخوف الذي عشناه خلال إقامتنا في الشقة، إلا أن خسارتها كان الجزء الأصعب. وبخسارتها فقدنا المكان الآمن الأخير.

صفحة جديدة من المعاناة

عرض علينا خطيب أختي أن نسكن في منزله الواقع وسط مدينة غزة. انتقلنا إلى هناك، وأصبح كل يوم أصعب من اليوم السابق. وهنا، أحتاج إلى أخذ نفس عميق؛ ربما يكون من الصعب تصديق الكلمات التي أنا على وشك مشاركتها. خلال هذه الفترة، انقطعت كافة وسائل العيش – مياه الشرب، وغاز الطهي الضروري، والخضروات، والحليب، والدقيق. الحصول على

أي شيء أمر صعب للغاية، وإذا تمكنا من توفير أي شيء، فهو بكميات محدودة للغاية. خلال هذا الوقت، كان أطفالي يعيشون في خوف شديد وجوع. شعرت أنا وزوجي بالعجز. كثيراً ما أبكي حتى أنام من الجوع، وأشعر بالحرج أن أخبر أحداً بأنني جائعة، لأن أطفالي كانوا أكثر حاجة إلى الطعام الذي تمكّنا من تأمينه بصعوبة.

اضطررت لشرب الماء المالح لمدة ثلاثة أيام مما سبب لي التهابًا في الجهاز الهضمي. ولهذا توقفت عن شرب الماء لمدة يوم كامل، لأنني يمكن أن أتحمل العطش ولكني لا أستطيع تحمل آلام المعدة، خاصة مع محدودية الوصول إلى العلاج والصيدليات. كما أنني خلال هذه الفترة لم أتمكن من شراء الأدوية والفيتامينات التي نسيت إحضارها من الشقة في تل الهوى.

تلك الأيام المؤلمة رافقها خوف كبير بسبب القصف المكثف والمتواصل على المنطقة ولم أعد قادرة على السيطرة على خوفي وخوف أطفالي. بعد أن مكثنا عشرة أيام في شقة خطيب أختي، صُدمنا عندما أصبحت الدبابات الإسرائيلية قريبة جدًا من مكان سكننا. بدأنا نسمع اشتباكات عنيفة في المنطقة، وبدأ السكان والنازحون في المدرسة القريبة في الاتصال بالصليب الأحمر لمساعدتهم في إجلاء المنطقة، ولكن دون جدوى. ***لقد نجونا من الموت بأعجوبة.***

طريق الذل والموت

قررنا التوجه جنوباً رغم خوفنا الشديد. روايات المهجرين المتجهين إلى الجنوب كانت مرعبة، وتبين أن "الطريق الآمن" المزعوم، كنا وصفه الاحتلال، هو فخ الموت.

مشينا لمدة ساعتين حاملين أمتعتنا الشخصية وأطفالنا، ممتلئين بالخوف والذل والقهر. وفي منتصف الطريق الوعر، شعرت بالإرهاق الشديد، وتمنيت لو أن أجلس بضع دقائق أو أشرب قطرة ماء. ومع ذلك، فإن أي حركة يمكن أن تعرض حياتك للخطر - فالنظر إلى الخلف أو الجلوس أو التقاط أي شيء سقط منك ممنوع. مررنا بنقطة تفتيش إسرائيلية، مجهزة بكاميرات، أقيمت في شارع صلاح الدين، وعلى جانبيها جنود، ولمحت دبابتين متمركزتين خلف الكثبان الرملية. كان علينا أن نرفع إحدى أيدينا ممسكين ببطاقة هويتنا، واليد الأخرى لإعلان الاستسلام.

في تلك اللحظة، نادى جنود الاحتلال عبر مكبر الصوت على ثلاثة أشخاص للاقتراب منهم، وعلى آخر لرمي أغراضه الشخصية. وبعد دقائق سمعنا إطلاق نار. أصابني الذعر، لكنني لم أستطع العودة إلى الوراء للاطمئنان على حسون الذي كان مع جدته. مررنا بالحاجز، وكانت تلك أول مرة في حياتي أتمنى أن يكون الموت أقرب إلي من الحياة بسبب الإرهاق الجسدي والنفسي الشديد الذي كنت أشعر به، والخوف من أي مضاعفات قد تؤثر على الحمل.

المصير المجهول

في الجنوب، الوضع ليس أفضل أو أكثر أمانًا، لكنني تمكنت من الحصول على أدويتي وعلى الخضار لتعويض بعض النقص الغذائي الذي كنت أعاني منه في الفترة السابقة. لكن القصف مستمر، ويبقى الخوف أقسى المشاعر، خاصة مع اقتراب موعد ولادتي. أخشى الولادة في هذه الظروف الصعبة، أخشى إجراء عملية قيصرية بدون تخدير أو بأدوات غير معقمة، أخشى فقدان طفلي الذي لم يولد بعد أو أي من أطفالي، وأخشى عدم العثور على منزل آمن أو بيئة مناسبة للطفل ليعيش بها.

إذا انتهت الحرب وتمكنا من البقاء على قيد الحياة، آمل أن أتمكن من إعادة بناء منزلي أو العثور على منزل مناسب قبل موعد الولادة.